عبدالنبي اصطيف

قاعدتان ومساران

للتفاعل بين الآداب

ربما كان أفضل تعريف مختصر للدرس المقارن للأدب هو: (دراسة لعملية التفاعل بين الآداب المختلفة لغةً وقوميةً ومجموعاتٍ إثنية). والناظر في صلات التفاعل هذه، يقع على ضربين رئيسيين من هذه الصلات. والوقوف على طبيعة هذين الضربين من هذه الصلات، لا ريب ضروري لفهم هذا التفاعل الذي هو جوهر الدرس المقارن للأدب.

فأما الضرب الأول؛ فإنه يستند إلى عنصر المؤلِّف. وأما الضرب الآخر؛ فيتمحور حول القارئ. وبينما يدور الضرب الأول حول عملية إنتاج العمل المدروس مقارَنياً، ويركِّز على صلاته بالعمل الذي تفاعل معه، أو الأعمال التي تفاعل معها، فإن الضرب الثاني يدور حول عملية تلقّي العمل، أو الأعمال موضوع التفاعل أو الاستلهام، والوقوف على صورها. وفي حين أن مسار الضرب الأول ينطلق من الماضي باتجاه الحاضر، فإن الضرب الثاني يمضي من الحاضر إلى الماضي. ومعنى هذا أن الصلات ما بين الأعمال المتفاعلة، إما أن تستند إلى مؤلف العمل الأدبي، لأنها قائمة أساساً على الصلات التي تنشأ بين الكُتّاب والأدباء المنتمين إلى آداب قومية مختلفة، سواء انعقدت هذه الصلات من خلال قراءة أديب متأخر زمانياً (المؤلِّف ب)، لأديب متقدم زمانياً (المؤلِّف أ)، بلغة هذا الأخير الأصلية، أو مترجَماً إلى لغة يعرفها الأول منهما؛ أو تحققت من خلال اطلاع أديب متأخر زمانياً (المؤلِّف ب)، على كتابات أديب متقدم زمانياً (المؤلِّف أ) بمختلف الطرق: بقراءة عرض لهذه الكتابات بلغة يعرفها؛ بوقوعه على إشارات لهذه الكتابات في أثناء قراءاته؛ بسماعه محاضرة أو حديثاً إذاعياً، أو بمشاهدته برنامجاً تلفزيونياً أو فيلماً سينمائياً، أو بمتابعته مسلسلاً إذاعياً أو تلفزيونياً، أو أية وسيلة أخرى من وسائل التواصل المتعلقة بالكاتب المتقدم زمانياً (أي المؤلف أ)، من جانب الكاتب المتأخر زمانياً (المؤلف ب).

والمعروف أن هذه الصلات المباشرة أو غير المباشرة، كانت أولوية، بل شرطاً لازباً لأتباع المدرسة الفرنسية، الذين يُصرّون على أن تكون صلات فعلية موثقة، في حين أنها ليست كذلك بالنسبة لمدارس أخرى؛ كالمدرسة الأمريكية أو المدرسة السلافية أو المدرسة الألمانية (مدرسة التلقّي)، أو المدرسة الما بعد استعمارية، التي أسسها إدوارد سعيد.

وأما الضرب الثاني؛ فهو الصلات التي تستند إلى قارئ العمل الأدبي، لأنها قائمة أساساً على الصلات التي تنعقد عادة ما بين القرّاء ونصوص أدبية معينة، منتَجَة من جانب مجتمعات غير مجتمعاتهم، أي تنتمي إلى (الآخر)، وما ينجم عن هذه الصلات من تأثير في تلقّي هذه النصوص في نفوس متلقيها، وما تُحدِثه من تغير في نظراتهم، بل تقويماتهم، وتفسيراتهم، وفهمهم لنصوص أخرى متقدمة زمانياً على النصوص التي قرؤوها، والتي قد تكون متأخِّرة زمانياً، أي أنها نصوص حديثة أو معاصرة، ومن ثم فإن محور هذه العلاقات هو القارئ، وصور تفاعله مع نصوص حديثة تيسر له الاحتكاك بها بطريقة من الطرق، وما يمكن أن ينجم عن هذا الاحتكاك من تأثير في قراءاته لنصوص أُنتِجت في فترة سابقة.

الباحث في صلات التفاعل يقع على ضربين رئيسيين هما المؤلف والقارئ

وفضلاً عن اختلاف قاعدة هذه الصلات ما بين صلات تستند إلى المؤلف، وصلات تستند إلى القارئ، فإن المسار الخطي لهذه الصلات يمضي كل منهما في اتجاه معاكس لاتجاه الآخر.

ففي حين يتجه مسار الصلات القائمة على المؤلف من القديم إلى الحديث، ويمضي التأثير، أو الإلهام المستَمَد من لقاء الحديث بالقديم، من هذا الأخير باتجاه الآخر الحديث؛ فإن مسار الصلات التي تقوم على القارئ يتجه من الحديث إلى القديم، تاركاً أكبر الأثر في فهم القديم، وتفسيره، وتقويمه، والحكم عليه. ويمكن توضيح هذين المسارين على النحو الآتي: المسار الأول: من الأدب القديم زمانياً إلى الأدب الحديث زمانياً، والأساس/القاعدة هو المؤلف. ومثاله (أسطورة بيغماليون) في كتاب (مسخ الكائنات) لأوفيد، التي استلهمها عمر أبوريشة في قصيدته (امرأة وتمثال)، حيث مسار التأثير أو الإلهام الخطي من القديم إلى الحديث؛ أو أسطورة (آمور وبسيشه) المذكورة في رواية (الحمار الذهبي)، أو تحوّلات لأبوليوس لوكيوس، واستلهاماتها اللاحقة من جانب الفنانَيْن: الرسام فرانسوا جيرارد (١٧٧٠-١٨٣٧م)، والنحات أنطونيو كانوفا (١٧٥٧-١٨٢٢م)، واستلهام أعمال هؤلاء من جانب عبدالسلام العجيلي في روايته (أجملهن- ٢٠٠١م).

إن قراءة أبي ريشة لأسطورة بيغماليون، قد ألهمته بداية تدبّره لها في قصيدته (امرأة وتمثال)، التي عرض فيها قراءته، وفهمه وتفسيره لهذه الأسطورة. وكذا الشأن في أسطورة (آمور وبسيشه)، التي استلهمها العجيلي بوساطة الفنانَيْن، وقدّم تفسيره لها في روايته (أجملهن). ومن جهة أخرى؛ فإن قراءة نص أبي ريشة من جانب قارئ حديث (انغمست حياته في قراءات وتجارب محددة)، ستؤثر لا محالة في قراءته لنص أوفيد، وبالتحديد لأسطورة بيغماليون كما وردت في مؤلفه مسخ الكائنات أو التحولات، كما هو الحال في المسار الثاني.

ففي المسار الثاني من الأدب الحديث زمانياً، إلى الأدب القديم زمانياً، والأساس/القاعدة هو القارئ (العام، أو المتخصص، أو الناقد، أو الباحث). ومثاله ما أشار إليه (عبدالفتاح كيليطو) في معرض حديثه عن العلاقة بين أبي العلاء المعري ودانتي، إذ يؤكد أن اهتمام المحدّثين برسالة الغفران، إنما يعود إلى دانتي، مضيفاً أنه: (لولا دانتي ما اهتم أحد برسالة الغفران. لقد صارت محط عناية ورعاية منذ أن نُظِر إليها كرافد من الروافد التي غذت الكوميديا الإلهية).

وبعبارة أخرى؛ لقد أخرجت هذه المقارنة رسالة الغفران، لأديب العربية المتفرّد في رؤيته للعالَم، مع أنه كان، ويا للمفارقة، رهين المحبسين: (من عزلتها الطويلة، ورفعت من ثمنها لدى فئة واسعة من المتأدّبين العرب وغير العرب، إلى حد أنه يمكن القول من دون مبالغة: إن دانتي أثر في المعري). أجل، كتب دانتي الكوميديا الإلهية بعد ثلاثة قرون من الغفران، ومع ذلك فإن تأثيره واضح في نظرتنا لمؤلَّف المعري وطريقة تناولنا له. إننا نقرؤه باحثين في صفحاته ومنقبين في أرجائه عن دانتي! لم يعد بإمكاننا تناوله كما تناوله القدماء، وبالأحرى كما نظر إليه المعري. في رسالة الغفران؛ لا يلتقي ابن القارح بالشعراء العرب فقط، وإنما أيضاً بالشاعر الإيطالي. إن دانتي حاضر في كل مشهد منها، والحوار بينه وبين المعري لا يتوقف لحظة. لم نعد قادرين على قراءة الغفران بمعزل عن الكوميديا (منامات أبي العلاء)، في الأعمال: الجزء الرابع، حمّالو الحكاية (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٦م).

وهنا نجد أن مسار التأثير يمضي من الأدب الحديث زمانياً، إلى الأدب القديم زمانياً، وأنه مؤسَّس على قاعدة من تلقي (المتأخِّر) زمنياً لـ(المتقدِّم) زمنياً، ولكنه في الوقت نفسه يؤثر بدوره في المتقدِّم زمنياً من خلال رؤيته له بعيون حديثة، وفهمه له استناداً إلى تحوّلاته في عيون أصحاب هذه الرؤية. ومعنى هذا أن عملية التفاعل ما بين الآداب المختلفة، التي هي جوهر الدرس المقارن للأدب، طريق باتجاهين، يمضي أولهما من الماضي باتجاه الحاضر، وينعكس في قراءتنا للعمل المتأخر زمانياً في ضوء العمل السابق له، في حين يمضي ثانيهما من الحاضر إلى الماضي، ويتجلى في تدبُّرنا للعمل المتقدِّم زمانياً، إذ نقرؤه في ضوء العمل اللاحق له.

الأول ينطلق من الماضي باتجاه الحاضر والثاني يمضي من الحاضر إلى الماضي

المساران لهذه الصلات يذهب كل منهما في الاتجاه المعاكس للآخر

يرى (عبدالفتاح كيليطو) أن (دانتي) قد أثر في نظرتنا لمؤلف المعري (رسالة الغفران)